وفي مواجهة امراض المجتمع بدون خوف او تردد . وعبر منظور بطل الرواية في المقام الاول تتبدى أنماط للسلوك وعقليات يصعب التوفيق بينها عندما تقبل البلدة بالتحدي : فتاة ترتدي البنطال بقرب أمرأة محجبة ، وفتاة مثقفة لا تتعاطف مع بلدتها وتغلق على نفسها في البيت لكي تستمع الى الموسيقى الغربية ، وعم البطل في تقواه ليس لديه ما يقدمه سوى الصلاة بينما يقوم العدو بتخريب البلدة ولا يتوانى عن نحر زوجته الحبلى . والجشع الذي يظهر على أفراد يبيعون ممتلكاتهم لكي يتسنى لهم الهرب ، والسائقون الذين يحملون الناس الى مكان أمين لقاء أجور خيالية ، والفورات السلبية أو العبثية من الاستجابات العاطفية ، وخيانة مواطن خداع يهرب بالاموال المجموعة لاجل الدفاع ثم يفشي خطة البلدة الى العدو قبل الموعد المحدد ، واخيرا الطريقة التي يباغت بها العدو المدافعين عن البلدة وهم على غير استعداد ، وقبل وصول التعزيزات المنتظرة . ان القصة تنتهي بخاتمة مستبقة ، انما ليس بدون مرحلتين وثيقتي الصلة من مراحل المقاومة البطولية : المرحلة الاولى عن رفقاء سهيل المقاتلين والذين ظلوا حتى الموت مخلصين لمثلهم العليا ، ورفض سهيل في ان يقبل الواقع كما هو وأن يهرب منه أو ان يبوح بسر مهمته للعدو لدى اعتقاله وتعرضه للتعذيب . هاتان المرحلتان من البطولة هما النتيجة الحاصلة من ارادة فردية ، وليس عن روح جماعية في القتال . فالبلدة تحولت الان الى رماد وركام — كما يقول الآسر للبطل — لكن البطل يوحي بان الرماد سوف يسمد الارض ويخصبها . ويرد الاسر بقوله : « سوف نستغلها » . بينما يأتيه الجواب الاخير من سهيل دون تراجع : « لكن ذلك لن يدوم طويلا » .

ان هاجس بركات في الاسقاط القاتم لبيئة بطله الاجتماعية يصل الى درجة مفرطة . ومع ذلك فهو يحدث أثرا مفيدا اذ يلفت انتباه قارئه الى الامراض الاساسية التي تفتك بالمجتمع العربي ، مشددا على الحاجة الملحة الى تقييم جديد ومخلص ، ليس فقط لتلك الامراض بل وأيضا للطريقة التي عولجت بها . ان أحد البواعث التي يستخدمها في وصف المعضلة العربية هو باعث غربي : عن الهولندي الطائر . ففي رواية سهيل عن اليوم الاول ترد الاشارة الى موت الهولندي الطائر ، لدى عثوره على المرأة المخلصة التي تضحي بنفسها من أجله ، والى الفكرة القائلة بان شعبه يمضي في ابحاره ، على غرار الهولندي ، من دون حيلة . هذا الباعث يتحول الى موضوع رئيسي في رواية بركات الاخيرة : **عودة الطائر الى البحر** . وهنا ايضا يجد رمزي في اليوم الاول من الحرب متوازيات بين بلاده والاسطورة الغربية . ان بلاده تشبه الهولندي الطائر ، الذي يتحتم عليه الابحار عشوائيا في بحار الخوف والرعب والجهل . ويبدو ان وصولها الى شاطىء للامان هو ضرب من المحال . فالبحارة غير كفوئين ، ولم يلقوا الموت او يعثروا على الشاطىء ، بل يواجهون الحرب الان ، بعد انهاك قواهم اكثر من السابق نتيجة التجوال المتواصل . فلا يبقى هناك سوى الغضب : ليتمردوا بوجه الشياطين والالهة (وهذه ترمز الى الدول الغربية) المسؤولة عن محنتهم ، مهما كانت العواقب . والبطل يشعر ان بلاده يرفضها الموت بقدر ما ترفضها الحياة ، وانها سفينة بلا دفة او ربان . أشد ما يؤلمه : رؤية ابناء بلاده يخدعون انفسهم بدفة غير موجودة ، لكن وطنه ليس بدون غضب . هنا يكمن مستقبله ، رغم ان الامه سوف تستمر الى حين عثوره على منقذ ، وهذا المنقذ سوف يبقى مخلصا للوطن حتى الموت . ان رمزي لا يبحث عن قائد يفرض قراره على شعبه ويصهرهم في قالب معين ، ثم يخدعهم ويعمل على تهدئة المؤسسات البالية . بل هو يريد قائدا يشع بريقه ويتحدى . ويوحي الى الشعب بالتفكير والاحساس والبحث والتخاطب في حرية مع انفسهم ومع قادتهم .

تقع الرواية ذاتها في ثلاثة اقسام . فالقسم الاول عنوانه « العتبة » ، والقسم الثالث يحمل عنوان « أيام عديدة من الغبار » . وهذان القسمان هما في مرتبة ثانوية نسبيا